صار لازم ينحطّلها حل»، ثم تبدأ بتعداد المناسبات والأوقات التي يجدها الكبار والصغار «حجة» لهم، ليطلقوا العنان للعب بالنار. سئمت زعيتر «العيشة في الحي التحتاني، حيث لا يتسنى لنا النوم، لا وقت قيلولة بعد الظهر، ولا حتى في الليل، حيث تستمر سهراتهم الولعانة حتى طلوع الضو، ولا حتى في السحور». تحكي، باستهزاء، عن بعض الشباب الذين «كلفوا أنفسهم إيقاظ الناس إلى سحورهم بطريقة جديدة تختلف عن جميع الطرق والتقاليد التي اعتدناها. فبدل الطبلة صارت القنبلة». تتابع: «تأتي سيارة كل يوم بوقت السحور بتبرم على كل الأحياء، وعند كل مدخل حيّ بيضربوا قنبلة وبيمشوا».

في الحيّ التحتاني، بات للمسحراتي أسلوب جديد في إيقاظ الناس، وفي الحيّ المقابل لا ينام الناس أبداً ليستيقظوا على السحور. فلا تكاد تمر ليلة «من دون معركة مضادات أرضية جوية»، يقول عماد المستراح. يتحدث المستراح عن المعارك شبه اليومية التي تدور بين لاعبين من الحيّ الذي يقطنه وآخرين من حيّ قريب. لم يعد الشاب قادراً على احتمال المزيد من المعارك التي كان من شأنها إحداث حالة رعب «لابني البالغ عامين. كل ما سمع شي فقع بينقز وبيبلش بالبكي». يشتم المستراح «الفرقعة والمفرقعين»، ويقول هازئاً: «ولك جارنا أحرق بما قيمته مئتا دولار احتفاءً بطهور ابنه». يشرح أكثر: «بتنا نقول لزوارنا عندما يخافون من أصوات المفرقعات المباغتة: ما تخافوا مش قصف إسرائيلي، هيدا فتيش».

لا تختلف حال محمد حليم الذي يشتم «الفتّيش واللي بيلعبوا فيه واللي بيبعوه». يضحك هازئاً: «صار عنا بالحيّ صواريخ أرض وجو». ويروي أن «صاروخاً طائشاً أحرق محلي».

هذا جزء مما يحدث داخل القرى. لكن ما يجري في محيط الفنادق والمطاعم التي تشهد حفلات فنية، قد يكون أسوأ بكثير، حيث يعيش القاطنون بالقرب من تلك الأماكن قلقاً يومياً. قلق يبلغ ذروته أيام الجمعة والسبت والأحد.

لكن، مقابل الخوف الذي يعيشه سكان القرى والمدن أيضاً، تبرز حالات الارتياح في صفوف بائعي الألعاب النارية، فهؤلاء يستفيدون من إقبال المواطنين على شراء بضائعهم. وفي هذا الإطار، يشرح تاجر في منطقة المصنع اللبناني أن «رواج الألعاب النارية يدفع بالكثيرين للإقبال على اتخاذ بيع الألعاب النارية مهنة لهم، لأنها تجارة مربحة». وأكد

> 60% من الألعاب النارية التي تنفجر أرضاً مهربة

أن لبنان «يستورد سنوياً نحو 80 مستوعباً من الألعاب الجوية ذات السعر الباهظ»، مشيراً إلى أن «مستوردي هذه البضائع من كبار البلد وهم قادرون على إدخالها بطرق تعفيهم من الرسوم الجمركية المرتفعة، ما حدا أشخاصاً إلى أن ينشئوا مؤسسات تتعهد ببيع الألعاب النارية وتنسيقها وإشعالها في الأعراس والحفلات بطرق هندسية حديثة». وبالنسبة إلى أنواع الألعاب، يشير التاجر إلى أن المفرقعات تتنوع ما بين «أرضية وجوية». ويقول إن «المفرقعات الأرضية الموجودة في الأسواق تدخل إلى لبنان بطريقة غير شرعية، وبعضها موجود منذ فترة زمنية في المستودعات». ويضيف: «60% من هذه المفرقعات مهرّب، وبعضها مؤذٍ مثل الزلزال والبطريق والكبريت الأحمر والأخضر والدادي والغزال».

من المسؤول عن ضبط هذه الظاهرة التي تنتشر بقوة؟ «الحق على جمارك مرفأ بيروت». بهذه الكلمات، يبرّر مسؤول في الأمن الداخلي وجود هذه الألعاب المؤذية والمقلقة بين أيدي الأولاد، التي بسببها فقد «الكثير منهم أصابع يديه، ومنهم من تضررت عينيه»، يقول المسؤول الذي رفض الكشف عن اسمه. وتعليقاً على أنواع المفرقعات، يقول المسؤول إن «القانون اللبناني يمنع دخول وبيع كل ما ينفجر في الأرض، في المقابل سمح بكل ما ينفجر في الجو». لكن، في لبنان كل شيء مباح «أرض وجو». ولفت المسؤول إلى أن «المفرقعات الأرضية الممنوعة قانوناً تدخل السوق بطرق غير قانونية». لهذا السبب، ولضبط تلك الألعاب «حرصاً على السلامة العامة»، نظمت القوى الأمنية «منذ سنة ونصف حملة تواقيع يتعهد من خلالها تجار الألعاب النارية بعدم شراء أنواع المفرقعات التي تنفجر أرضاً أو المتاجرة بها». ورغم أن هذه المفرقعات خفّ مبيعها بسبب تلك الحملات، إلا أن «البعض ما زال يتاجر بها بمنأى عن عيوننا»، يضيف المسؤول.

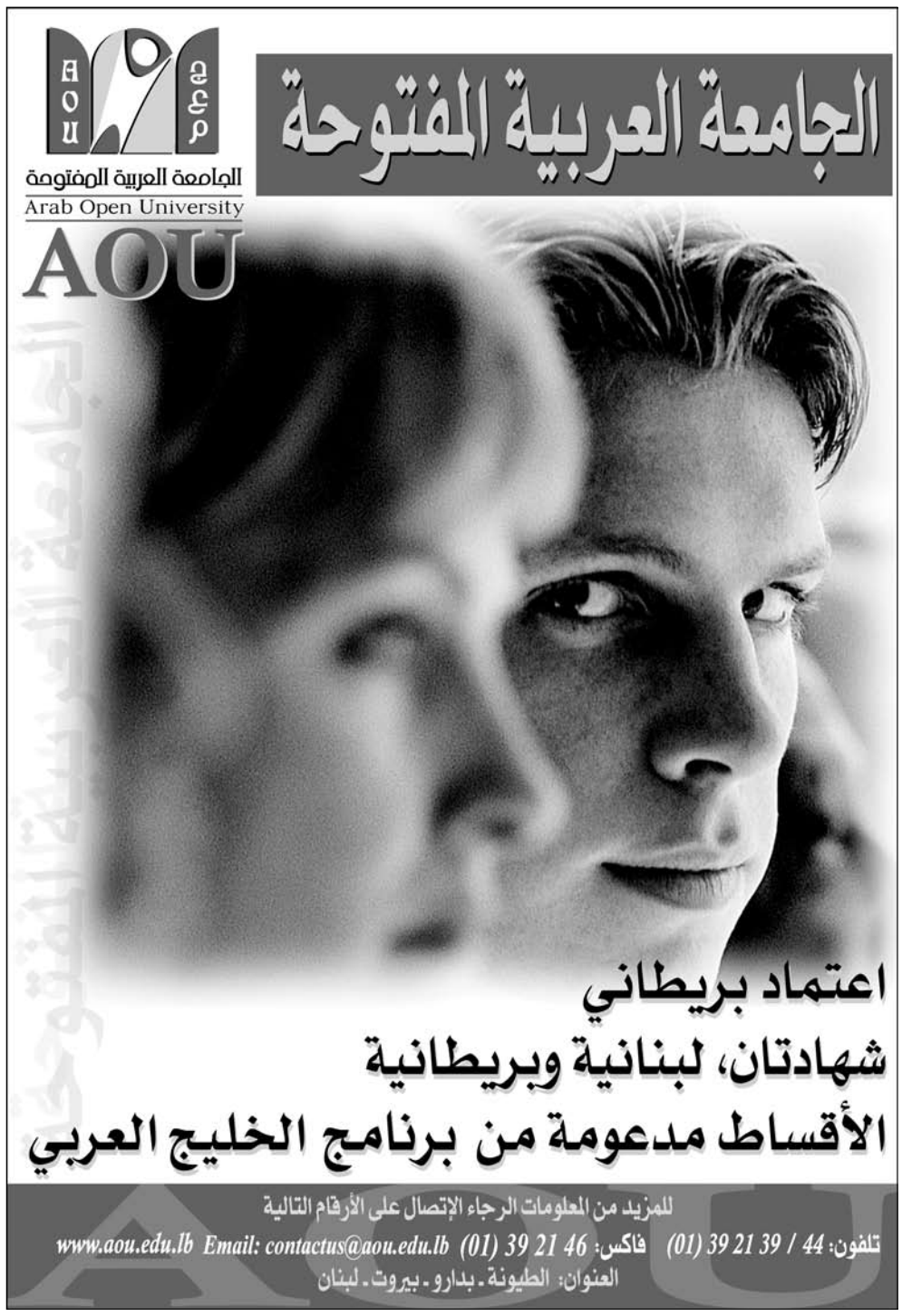

حكي سرفيسات

أرض الخيال

ضحى شمس

كان الأمر أشبه بشخص ينتشلك من لجة عميقة، الى الهواء الحر. كأنك كنت تغرق لفترة طويلة، ثم فجأة رفعت رأسك فإذا بك فوق الماء، تكتشف مرة أخرى ما معنى التنفس، وتنظر بعينين تعاركان أثر المياه المالحة الى الأفق الجميل، تكتشف السماء، والغيوم، والهواء، والطيور. كأن حراشف كانت قد بدأت تنبت في جسمك لطول مكوثك تحت، في مستنقع التفاهة المبتذلة، كنت قد بدأت تتأقلم، ثم، مصادفة، رفعت رأسك، فشممت رائحة الهواء النقي. تأخذ نفساً عميقاً، تبتسم مغمضاً عينيك للحظة، لتحتفظ ما أمكن بهذا الإحساس وتبكي. كل ذلك لمجرد أن هناك من روى لك قصة بإتقان، أحيا ما كنت تظنه مات من خيالك، خطفك لساعة ونصف، رفعك الى سماء الحلم، ثم ترفق بإعادتك الى حيث كنت، على الكنبة أمام التلفزيون.

«نفرلاند» كان اسم الفيلم الذي شاهدته بين مسلسلين. يحكي الفيلم قصة كاتب حكاية الاولاد «بيتر بان». لم تأثرت لهذه الدرجة؟ سألت نفسي. لم لم يخطف الفيلم عقلي قبل سنوات حين رأيته؟ هل لأنني وقتها لم أكن جائعة الخيال لهذه الدرجة؟ لم أكن غريقة في مستنقع اسمه التلفزيون، حيث لا تشكل نشرة الأخبار، ودراما رمضان في آن واحد، إلا تكثيفاً استثنائياً لتفاهة الحياة العامة وابتذال كليشيهات الخير والشر. لا يعرف أحفاد مؤلفي ألف ليلة وليلة وسيف بن ذي يزن، كيف يروون قصة جيدة، مقنعة، متقنة التفاصيل. قصة تستطيع أن تقوم بوظيفتها بإغناء الخيال وإمتاع الحس ولو مساحة ساعة. وأرض الخيال، ليست بحاجة الى أكثر من ساعة لترتوي. فالساعة فيها أطول بكثير من وقتها الأرضي، لأنها تبقى في دواخلنا، غذاءً سحرياً مربوطاً بحبل سرة الروح. تبحث في المسلسلات الرمضانية عن الارتواء، فلا تصيبك شراسة المنافسة للفوز، إلا بالتوتر: منافسة بين القنوات، بين المسلسلات وبالطبع بين النجوم. شراسة دون إعارة أي انتباه وجهد للإتقان، للإقناع. تضيع بالمتابعة بين مسلسلات مختلفة، لكن بممثلين، وأزياء متشابهة. كأن الحكاية وحدها تهم. تمثيل بمعظمه تافه، شخصيات نسجت على عجل. أما الديكور؟ فهو الطامة الكبرى. كأنه ديكور شفوي. تفاصيل الملابس، الماكياج، الإيقاع الداخلي. كأننا عبرنا قرناً من تطور التقنيات البصرية، لنتعامل مع التلفزيون كصندوق فرجة يعرض «جمال» ممثلينا. نوع من «بوديوم». يكفي فيلم واحد، مثل «نفرلاند»، بديكوره، بحواره، بتمثيل أشخاصه، لتحدث المقارنة المبكية. مجرد ساعة ونصف تكشف الى أي درك من الابتذال قد تدهور خيالنا، من خلال مساومة مديدة بين ما يعرض علينا وبين ما نحتاج إليه. تعبنا من المساومة فأصبح خيالنا واطئاً لدرجة أنه لن يتوجع إن وقع أرضاً.

نحن بحاجة إلى حكاية بصرية نصدقها. الناس أنفسهم الذين يصنعون «نجاح» المسلسلات الغبية منذ سنوات بحاجة إلى ذلك. لا تنظر الى ما يقبلون على مشاهدته برغم تفاهته. انظر إليهم عندما يشاهدون شيئاً جيداً، كيف يولدون من جديد. كأن الأمر الجيد، وحده، يخرج منهم أمراً جيداً. كأنهم ثابوا، سحابة فيلم، إلى رشدهم. خيالنا يتضوّر جوعاً منذ زمن طويل. وهو لا يكتفي بأن يعبّر عن نفسه في تفاهة الإنتاج الثقافي، بل بالمكان الأخطر: الحياة العامة. تحول الشعب الى مجرد جمهور، مطلوب منه أن يصفق أو أن يصفّر. لا شيء بين الاثنين. تفاهة الروح مفتاح لتفاهة العقل. بعقول كهذه يستطيع السياسيون أن يتحكموا. وكلما قبل الناس النزول درجة، نزلوا درجتين. لا قعر للابتذال، تماماً كما لا حدود لجموح الخيال.

منذ زمن طويل لم يخرج المصريون أجمل ما عندهم. ربما لأنهم متعبون مثلنا ويائسون. السوريون يحاولون. من وقت إلى آخر يلمع عمل، أو ممثل أو فكرة. ولكن لا بنية تحتية تراكم كل ذلك. المصريون غارقون بعبادة أصنام صنعوها لأنفسهم. شراسة النجوم للحفاظ على نجوميتهم تستحوذ على أدائهم. هم لا يمثلون إلا أنفسهم منذ زمن بعيد: يسرا تمثل يسرا، نادية الجندي تمثل نادية الجندي وعبلة كامل تمثل عبلة كامل. حتى سلاف فواخرجي في مسلسلها «العائلي» كليوباترا، لا تمثل إلا سلاف فواخرجي. كل «أفكار المسلسلات» لا تدور إلا حول إبراز «مفاتن» النجمات وذكورية الرجال ووطنيتهم، اضافة الى إيمان سائر من في المسلسل. الكل مؤمنون، بالطبع، وهل يجرؤ أحد على عكس ذلك، وفي رمضان؟ أصلاً، هل يخطر ببال أحد عكس ذلك؟ هذا هو السؤال المهم.

هل المشكلة في الإنتاج؟ في مصر وسوريا الإنتاج مسؤولية القطاع العام اولاً. وهو أمر جيد جداً برغم كل الملاحظات على تآكله بتواطؤ أحياناً من موظفي الدولة، لمصلحة الإنتاج الخاص. والإنتاج الخاص لا يستطيع في بلادنا إلا أن يكون تجارياً، لأن كل شيء يتضافر لجعله كذلك، وخصوصاً مستوى تطلب الناس. الدولة وحدها تستطيع أن «تخسر» على عمل جيد مكلف هنا، لتربح هناك، في أرض الخيال العام. فحين ينمو الخيال العام ويتسع، نحصل على مساحة إضافية تجمع بيننا. مساحة غير منظورة من الوطن اسمها الهوية.